الدولة الحمادية (404 – 547هـ / 1014م – 1152م)

سميت دولة بني حماد نسبة إلى مؤسسها حماد بن بلكين بن زيري بن مناد ابن منقوش بن صنهاج وبالنسبة إلى حماد فإنه لم تصل إلينا تفاصيل عن حياته قبل ظهوره على مسرح الأحداث سوء أنه قرأ الفقه في القيروان ونظر في كتب الجدل ولم ترد معلومات عن تاريخ ولادته ،أما بالنسبة إلى تاريخ وفاته فهي سنة (419هـ/1028م)

شخصية حماد وصفاته

امتازت شخصية حماد مؤسس الدولة الحمادية بمجموعة من الصفات التي يرجع بعضها إلى نسبه الوراثي وبعضها اضطرته أليه ظروفه كمؤسس دولة ومن خلال ذلك يكون حماد شخصية طموحة عنيفة لا يصدها عن غاياتها عاطفة أو قانون أخلاقي أو ديني وكانت هذه سمة كثير من ملوك صنهاجة الزيريين فهكذا كان عمه زاوي بن زيري وباديس بن حبوس .

لقد تواترت المصادر التي تحدثت عن صفات وأخلاق حماد فقد وصفه ابن الخطيب بأنه كان نسيج وحدة فريد دهره وفحل قومه ملكاً كبيراً وشجاعاً ثبتاً وداهية " ووصفه صاحب الاستبصار بأنه كان ذا دهاء وفطنة وتجربة في الحروب وكانت له فراسة وذكاء وأكدت المصادر التي تحدثت عن أخلاقه الحربية وعن فراسته وذكائه فيذكر البكري فمن المحفوظ عن ذكائه أن رجلاً شيخاً خرج مع امرأته من بعض البلاد يريد القلعة وفي الطريق تواطأت المرأة مع شاب على الزعم بأنها زوج الشاب وأنها لا علاقة لها بالشيخ وقد استطاع حماد كشف الحقيقة حين رفع إليه الأمر بواسطة الكلب الذي يصحبهم اعتماداً على ألفة الكلب للشيخ وليس للشاب وكذلك الرواية لابن الأثير ونتيجة للقسوة الشديدة التي عرف بها حماد فإن أكثر عسكر حماد كانوا يكرهونه لقلة عطائه .

قيام الدولة الحمادية

كانت سنة(395 هـ / 1004 م) هو التاريخ الصحيح لميلاد دولة بني حماد وهناك مصادر ترى أن سنة(398هـ 1007 م) هو التاريخ الشرعي لميلاد الدولة الحمادية مستندة إلى اختطاط حماد للقلعة بجبل كتامة وهو التاريخ الأقرب لإعلان قيام الدولة وبالرغم من هذين الرأيين المختلفين إلا أن القيام الحقيقي للدولة لم يتم إلا سنة (408هـ / 1016م).

لقد اضطرب حيل النظام بالمغرب على مشارف سنة(395هـ / 1004م) بدرجة أصابت باديس أمير دولة صنهاجة في المغرب التابعة للدولة الفاطمية باليأس الكامل في إمكان حكم البلاد والتي تحت يديه حكماً مباشراً فلم يرَبداً من التنازل الجزئي – في إطار صنهاجة لأبر شخصياتها ألا وهو عمه حماد بن بلكين ولم يترك حماد الفرصة فاشترط على ابن أخيه شروطاً تشرط فيها وهذه الشروط يذكرها ابن الأثير ابن عذاري و ابن الخطيب

1 – تملك حماد ولاية أشير والمغرب الأوسط .

2 – تملك حماد كل ما يفتحه من بلاد زناته .

3 – إن لحماد حق اختيار مكان إقامته (عاصمة) كما يشاء.

4 – إمداد حماد بالعتاد والمال والرجال.

تمثل الدولة الحمادية أول دولة بربرية مستقلة تحكم الجزائر في المغرب الإسلامي لقد دام عمر الدولة الحمادية ما يقرب من قرن ونصف منذ اختط حماد القلعة إلى سقوطها على يد عبد المؤمن بن علي زعيم دولة الموحدين .وقد حكم الدولة الحمادية تسعة أمراء اختلفوا قوة وضعفاً وأسلوب الحكم وكان حماد هو المؤسس للدولة ثم خلفته ذريته من بعده إلى أن جاء يحي بن العزيز الحمادي فكان تاسع وآخر أمراء بني حماد (515 – 547 هـ / 1121 – 1253م) مرت الدولة الحمادية بأطوار عدة تقلبت فيها من الصراع الطويل المستمر إلى الاستقرار النسبي والإبداع الحضاري كان من البديهي أن يتحمل حماد بن بلقين (مؤسس الدولة) أكبر قسط في مرحلة الصراع سواء مع الزيريين أو مع زناته وقد حكم الدولة الحمادية في مرحلة الاستقرار النسبي أربعة من أبرز أمراء الدولة الحمادية وهم (حماد والقائد بن حماد ، ومحسن بن القائد وبلقين بن محمد بن حماد) أما مرحلة الإبداع الحضاري كانت سنة (469 – 515هـ) والتي أبرز أمرائها هو (الناصر بن علناس ، والمنصور بن الناصر ، وباديس بن المنصور والعزيز بن المنصور) وبوفاة العزيز سنة (515 هـ – 1121م) ، وتولي يحيى ابنه مقاليد الأمور ونتيجة لعوامل محيطة بالدولة نتيجة سلوك يحيى نفسه أصبحت الدولة في مرحلة الانهيار.

حماد وبداية عهد الاستقلال

أمضى حماد عشر سنوات كاملة (395 – 405 هـ) وهو يعمل على تحقيق شخصية دولته وإذا كان حماد قد نجح في زحزحة زناته وبعثرتها فإن هذا كان تحقيقاً من جانبه للأساس المهم الذي قام عليه العقد السياسي بينه وبين باديس وشعر حماد بحريته وبعد بناء القلعة أخذ يتردد بين أشير والقلعة وهذا التحرك خوّف باديس فبدأ يتخوّف من حماد فعندما بعث الخليفة الفاطمي من مصر إلى باديس بتقليد ابنه المعز ولاية عهده طلب باديس من حماد أن يسلم عمالتي يتجس وقسنطنة إلى ولده المعز الذي كان صبياً لم يبلغ الثامنة من عمره فرفض حماد هذا الطلب واعدّه إخلالاً بالشروط التي بينهما وأكد روح الانفصال عن كل ما يمت لدولة ابن أخيه باديس بصلة فلم يكتف بإعداد جيش قوامه ثلاثون ألف مقاتل و إنما خلع ونبذ طاعة الفاطميين وأرجع دعوة آل العباس وبهذه الخطوات حققت الدولة الحمادية الاستقلال المعنوي إلى جانب الاستقلال في الأرض ولم يعد من بد أن يلتقي الفرعان الصنهاجيان ولم يتوان حماد في انتهاز أقرب فرصة أليه فأعد نفسه للقاء بباديس وفي الوقت نفسه حسم الولاء السياسي وأما باديس فإنه عمل على شراء زعماء جيش حماد بالعطاء الجزيل والتقى الجمعان بوادي شلف وانهزم حماد هزيمة ساحقة وقد أخذ الناس من الغنائم والأموال ما لا يحصى ونجا حماد و اتخذ السير إلى القلعة وكان بها أخوة إبراهيم ثم ذهب اليه فأخذ منها ما أمكن من ذخيرة وعاد إلى القلعة واستعد للحصار فلحقه باديس إلى القلعة و اكتفى باديس بالتمثيل ببعض الأسرى من المناصرين لحما وقد بعث حماد رسالة إلى باديس يريد بها الصلح . لم تسفر جميع المساعي عن نتيجة وشدد باديس الحصار على القلعة وحتى الحلم الذي كان يساور حماد بأن تسجل زناته انتصارات لم يتحقق فاضطر باديس إلى الزحف إليه وفك الحصار عن القلعة لقد أمر باديس بإقامة استعراض عسكري سره و ابتهج به كثيراً وفي آخر النهار فارق أصحابه و اتجه إلى خيمته وفي منتصف الليل توفي فجأة وقد تضاربت الآراء حول وفاته لكن لا يوجد رأي واحد يزعم بأن لحماد يد في ذلك وبموت باديس فك الحصار عن حماد والقلعة وعندما خلف المعز أباه باديس وتسمك حماد بما التزم به والد المعز أن له ولاية أشير والمغرب الأوسط وكل بلد يفتحه فلذلك زحف حماد إلى باغية وعندما علم المعز بذلك خرج على رأس جيش من أفريقية حتى انتهى إلى باغية وفك الحصار عنها و انتهت المعركة بهزيمة حماد وأصابته بجراح ووقوع أخيه إبراهيم في الأسر.

واستمر المعز بن باديس في زحفه إلى مدينة سطيف وقصر الطيب ثم قفل راجعاً إلى حاضرته تاركاً جموع حماد مشتتين في كل اتجاه وحينئذ أدرك حماد أن ساعة تصفية الحساب نهائياً مع القيروان قد حانت فبعث إلى

المعـزبـن بـاديس يطلـب الصـلح منـه ويسـأله العفـو وقـد بعـث إلى المعـزبـن بـاديس يسـتوثقه ونجحـت مسـاعي وفـد المصـالحة وتـم الاتفـاق بـين الطـرفين على أن يرسـل حمـاد ابنـه القائـد إلى القيـروان ففعـل حمـاد ثـم قـام المعـز بـإطلاق سـراح إبـراهيم وأعطـاه الأمـوال والـدواب وكل مـا يحتـاج أليـه وصـل القائـد بـن حمـاد إلى المعـز الـذي أكرمـه وأحسـن إليـه ثـم كتـب إليـه منشـوراً بولايـة المسـيلة وطبنـة واشـير والقلعـة مـرس الـدجاج وسـوق الحمـزة وكـل مـا يفـتح مـن بـلاد المغـرب وقـد عـاد القائـد إلى القلعـة بـالبنود والهـدايا وفي فترة تاليـة تـوج هـذا الصـلح بـين الأسـرتين بـربط أواصـر جديـدة حيـث زوج المعـزبـن بـاديس أختـه (أم العلـو) مـن عبـد الله بـن حمـاد وبـذلك أصـبح اسـتقلال المغـرب الأوسـط حقيقـة و اقعـة التي سـيتوارث أبنـاء حمـاد ملـك هـذه الـبلاد حـوالي قـرن ونصـف حتى سـقطت الدولة الحمادية في سنة (547هـ/1162م) في عهد الأمير يحيى بن العزيز.

القلعة عاصمة بني حماد

إن بنـاء القلعـة في سـنة (398 هـ/1007 م) واختيارهـا كعاصـمة ارتـبط ارتباطـاً وثيقـاً باسـتقلال شخصـية الدولـة الحماديـة فضـلاً عـن الـدور الـذي لعبتـه القلعـة في حمايـة الدولـة كمـا أن بنـاء القلعـة كـان تنفيـذاً لشـرط مـن أهـم شروط العقد السياسي بين حماد و ابن أخيه باديس .

أمـا موقـع العاصـمة القلعـة فلـم يكـن مجهـولاً تمامـاً بـل كـان هـذا الموقـع محـتلاً مـن قبـل الرومـان كمـا تـدل على ذلـك الفسيفسـاء والخـرائط ذات الحجـارة الضـخمة التي تنتمي إلى السـور القـديم وكـان لهـذا الموقـع أهميـة عسـكرية قديمـة ثـم تطـورت مكانتـه في العصـر الإسـلامي فأصـبح في العهـد البربـري الإسـلامي أحـد القـلاع الهامـة وكـان اسـم مكـان القلعـة في العهـد الإسـلامي العربي قلعـة أبي طويـل وقـد تـرجم يـاقوت الحمـوي في معجمـه لقلعـة أبـي طويـل ترجمـة مسـتقلة وذكـر أنهـا قلعـة كبيـرة بأفريقيـة بينمـا تعـدّ قلعـة أبـي طويـل مـن أحـواز قلعـة حمـاد وليسـت قلعـة حمـاد إلا عمر انـاً جديـداً لقلعـة أبـي الطويـل وقـد أحسـن حمـاد في اختيـار موقـع القلعـة مـن الناحيـة العسـكرية فهـي محصـورة بـين سـفحين شـديدي الانحـدار، ولكـي يحقـق حمـاد الغـرض الحربـي مـن بنـاء القلعـة عاصـمة دولتـه فقـد عمـل بعـد أن أنهى عمليـة البنـاء (405هـ/ 1014م) وكـان يحيطهـا بسـور مـن الحجـارة يبلـغ ارتفاعه متراً واحداً .

==========